التعليم المختلط

للأستاذ رفعة الحنبلي

[بقية ما نشر في العدد الماضي]

المحبذون لهذا التعليم يلفتون النظر إلى ظاهرتين اثنتين جديرتين بالاهتمام :

أولاهما أن البيئة والتقاليد والعادات هي عوامل قوية تدفع إحدى الأمم في الإقدام عليه إقداماً تاماً، وتجعل الأمة الثانية تحجم عنه إحجاماً كلياً

وثانيتهما : شخصية المربي التي تقوم بدورها التربوي الرفيع في تعهد الطلبة تعهداً فيه كثير من الحذر واليقظة والرفق واللين تبعدهم عن تسرب المساوئ إليهم - إن كان هنالك مساوئ - وتوجههم نحو المثل الأعلى للحياة الإنسانية الفاضلة ؛ هذه الشخصية هي بمثابة الملجأ الأمين من الأخطار التي قد تهدد حياة الطلبة من جراء الاختلاط ، ولا تنال الغلبة في هذا الأمر ما لم تتصف بالصفات الحميدة والمبادئ القويمة والخلق القوي والذكاء الحاد والفطنة المنبهة ، كي تتفهم نفسية الطالب ورغائبه وميوله ...

ولكن أين هؤلاء المربون الذين يتصفون بمثل هذه الصفات جميعها ؟ وأكبر الظن أنهم قليل ... والقلة ما كانت في يوم ما لتقوم مقام الأكثرية في تأدية رسالة أو إيفاء واجب

يذهب الدكتور Burness إلى أن التعليم المختلط في المعاهد الثانوية يقوي العلاقات الاجتماعية ويمكن الصلات الأدبية ، فينشأ الفتى والفتاة في بيئة تختلف عن البيئة الخاصة التي كانا فيها ، وإنها لأجدى على الفتى والفتاة من أية بيئة أخرى ، إذ يتجه الاثنان في اتجاه خاص هو من مصلحتهما ، وهي إلى ذلك تضعف في الفتاة تلك الرقة والحياء والدعة ، في الوقت الذي يتقوى عندها الشعور النفسي بأنها والرجل سيان في الحقوق والواجبات

وإذا ما تعمقنا في دراسة نفسيه كل من الجنسين ، وجدنا أن لكل منهما خصائص فردية تختلف في كل منهما عن الآخر جد الاختلاف ، على أنها تتحد في الأصل وتختلف في الفروع بمعنى أن للفتى من الوظائف الفردية الخاصة ما للفتاة ، على أن هذه الوظائف لم تكن لتمنع كلا منهما من أن يتلقى نوعاً واحداً من التعليم أو أنواعاً مختلفة ، فضلاً عن أنهما ذوا قابلية لتعليم خاص . وقد تتباين الاستفادة عند مباشرة الفتاة هذه الوظائف، فتتجه إلى ناحية غير الناحية التي يسير الفتى إليها

فهناك إذاً خصائص نفسية نسوية type psychologique feminin وخصائص نفسية رجولية type psychologique masculin تمضي بهما إلى غايتيهما ؛ ولكن لا بد من التساؤل عما إذا كانت هذه الخصائص المتباينة لها من المزايا ما يساعد على التعليم المختلط أم أنها تقف دونه ؟

كثير من علماء النفس يعتقد أن هذا التباين في الخصائص مما يساعد على التعليم المختلط مساعدة قوية فعالة ، فالفتيات والفتيان ما كان كل منهما ليكتسب مزايا وفضائل الآخر التي يفتقر إليها لو لم تمهد أمامه سبل الاختلاط - سواء في المعاهد أو في المجتمعات . ويرى الدكتور Burness أن مراتب التفكير Ordre des idées في الرجل هي غيرها في المرأة ، والتعليم المختلط يحمل كليهما على الاقتباس عن الآخر ما تحتاج إليه الحياة وما تتطلبه منه البيئة ، وبالتالي فإن أفق تفكيرهما ينبسط ويمتد إلى أقصى حدود الانبساط والامتداد . تلك متعة من متع الحياة تتفتح معها النفس لصنوف المؤثرات وشتى ألوان الأحاسيس .

ويعترض البعض الآخر على هذا الرأي بأن الخير كل الخير للمجتمع وللجنسين معاً في ألا تضعف هذه الخصائص النفسية الخاصة — إذ أن في ذلك ما يفقدها ، ولو إلى حد ما ، شيئاً من حيويتها وفاعليتها — وأن يحتفظ كل منهما أيضاً بمراتب تفكيره لا يتعداها إلى مراتب غيره ، فبقدر ما يكون الرجل تام الرجولة والمرأة كاملة الأنوثة تكون الجماعة الإنسانية غنية بالوسائل الفعالة التي من شأنها أن تؤثر في المجتمع وتدنيه من غايته المثلى ، فالواجب على المربين أن يؤدبوا الفتى تأديباً يصبح معه ، في المستقبل ، رجلاً تام الرجولة ، وأن يتعهدوا الفتاة تعهداً تمسي بعده كاملة الأنوثة ، على ألا ينظر إلى المرأة نظرة ضيقة حقيرة تنال من كرامتها وتحط من شأنها بل نظرة رفيعة تدفعها إلى الاستفادة من خصائصها الخاصة

ويعتقد المربي الكبير Hall أن خصائص ومزايا الجنسين هي غريزية بمعنى أنه لا ينالها تغيير ولا يمسها تطور — في جوهرها على الأقل — وهي تخضع لنظام يختلف في كل منهما عن الآخر

اختلافاً كلياً ؛ ويضرب لذلك مثلاً أن الفتاة تفهم من كلمات الوطنية والشرف والعائلة والشجاعة غير ما يفهمه الفتى منها ، فلكل من هذه الكلمات جرس خاص عند كل منهما ، هذا إلى أن الفتى قد لا يتأثر بخصائص ومزايا الجنس النسوى — إن قدر له أن يتأثر — دون أن يزاوج بينها وبين ما بنفسه من مزايا وخصائص

وهناك عيب لمسه الأستاذ Neff بنفسه بعد اختبار طويل ... هذا العيب يتعلق بالمربى الذى يؤثر فئة من طلابه على فئة ثانية ، أو بالأحرى يعطف على طالباته أكثر مما يعطف على طلابه ، بل ويتحيف حقوقهم أيضاً ، إذ يلمس فى الفتاة دماثة الخلق ، ونعومة الحديث ، وإشراق النفس ، ورقة الشعور كما يدرك فيها مزية الإذعان والامتثال والخضوع ، فتتم بالعطف والإيناس ، وتتمتع بالرفاهة والدعة ، فضلاً عن أن التنافس الذى يحصل بين هاتين الفئتين له من التأثير القوي على الفتاة ما يدفعها إلى الانكباب على الدرس حتى تفوز على زملائها وتحوز الدرجة الأولى دون تعمقها فى الدراسات وتفقهها فى المذاهب ، وهذا ما يفقر تكوينها العقلى ويضعف تفكيرها ويفسد تصوراتها ، لذلك يقول الأستاذ Rugg إن التنافس يجعل التعليم أقرب تناولاً وأدنى منالاً وأكثر سهولة ولكنه أقل عمقاً وأهمية

ويأخذ بعض علماء النفس على التعليم المختلط ، فى مرحلة التعليم الثانوى ، أنه مباءة للفساد ، إذ أنه يثير الغريزة الجنسية ، فتعصف بالنفس ، وتحرك العواطف فتنفعل الأحاسيس ، ويفقر الخصائص فتضعف الشخصية ؛ وهذا ما يكون خطراً مباشراً على الأخلاق والآداب ؛ وقد تكون الفتاة أقرب إلى هذه المؤثرات من زميلها الفتى وأدنى منه إليها

ويرد البعض الآخر على هذه المآخذ المتنوعة بأن الطبيعة الإنسانية تستدعى هذا الاختلاط ، وتتطلب هذا النظام لما لها من الأثر القوى فى حياة الناشئة ، فتوجه العواطف توجيهاً سليما ، وتوحد العلاقات على أساس الثقة المتبادلة ، وتمهد السبيل إلى رفعة الأخلاق وتقرب من الزواج ...

والفتاة نفسها ترغب فى هذا الاختلاط إلى حد بعيد ، وتتوق نفسها إليه ، وتندفع وراءه ؛ فالفتاة كالفتى ، يعتلج فى أطواء نفسها الحب العنيف ، وتتأجج فى صدرها الأهواء ، ويتفتح قلبها إلى الصداقة ، وما عساها تفعل بهذه النوازع ؟ ... إن حبها لشديد ، وإن عواطفها لعنيفة ، وإن خيالها لواسع ، وإنها لتفتش عن أميرها المنتظر ، عن فتاها ، قبلة أنظارها ومحط آمالها ورجاء مستقبلها ، والتى تأمل أن تكون له زوجة فى المستقبل لتنعم بجانبه وتطيب نفسها به ، ولكن أين تبحث عنه ، وفى أية بيئة تجده ، وفى أى وسط تحظى به ؟ ...

إنها قد تجد فتاها الجميل ، الذكى الفؤاد ، الدمث الأخلاق ، الكريم الشمائل ، فى البيئة التى تختلف إليها ، وما هى إلا بيئة المعاهد المختلطة التى تدنيها من غايتها وتحقق أحلامها وآمالها

والفتى ، أليس ينشد مصاحبة الفتاة ، ويميل إلى معاشرتها ويتمنى صداقتها ، إنه ليتلهف إلى اختيار فتاته ، وتصبو نفسه إلى الزواج منها ولا سبيل إليها إلا فى تلك البيئة المختلطة أيضاً .

ويقول العالم الكبير Jourdan « إننا نحصل على أحسن النتائج حينما يجتمع الجنسان فى معهد واحد إذ نرى الفتى أكثر إقبالاً على العمل وأحسن خلقاً ، ونرى الفتاة تؤدى أعمالها فى جو طبيعى وبدوافع أرق وأفضل »

يؤخذ مما تقدم أن الفصل بين الجنسين ليس فى مصلحة النشء ولا المجتمع فى شىء بل ربما كان سبباً قوياً فى تداعى الروابط الاجتماعية وفى تفسخ العلاقات الأدبية

وكما يؤخذ على التعليم الثانوى يؤخذ أيضاً على التعليم الابتدائى ولكن هذا لا يدانى الثانوى فى الخطر ولا يجاريه فى العيوب ، وما ينسب إليه من حسنات ينسب إلى الآخر على السواء

أما فى صدد التعليم الجامعى فيقول الدكتور Joteyko الأستاذ بجامعة بروكسل « إن من الواجب ألا نستنتج استنتاجات هزيلة من الملاحظات التى يبديها البعض ممن يقاومون هذا التعليم ، وألا نرد التأثيرات السيئة التى تحدث عنه إلى هذا النظام بعينه . إن الوقائع التى نلمسها يومياً فى أجواء المعاهد المختلطة تدفعنا إلى الاعتقاد بفساد هذا النظام ، وكثيراً ما تتألم الفتاة من مسلك زملائها الطلاب الظرفاء ، ذلك المسلك الذى يسبب لهن كثيراً من الإيلام ، مما يدفع المرء إلى التفكير فى إقصاء الفتيات عن التعليم المختلط ... ولكن لو أنعم هذا البعض الفكر فى أسباب هذه الوقائع ، لرد دواعيها ومسبباتها إلى نقص فى بعض الأنظمة التعليمية الحديثة ، أو بالأحرى إلى تخلف الفتاة عن المعاهد الثانوية